الفصل الثالث
المشهد المتبدل

لم يخطر على بالي بعد أن أتممت الستين من عمري في عام ١٩٤٥م أن عقدي السابع لن يكون مليئاً بالنشاطات المتلاحقة المتعلقة بي شخصياً، بل أيضاً بالنشاطات السياسية والاضطرابات التي سأكون فيها مجرد متفرج مسرور للغاية. اختتمت كتابي الذي جاء تحت عنوان «أيام عربية» بهذه العبارات:

«هذا هو دفاعي وإخلاصي في العهد الذي أقطعه على نفسي، العهد الذي التزمت به عبر السنوات التي سجلت أحداثها في هذا الكتاب، وكان مثلي الأعلى شاملاً غير مستثنٍ أي شعب من الشعوب لحقه في الحرية. لكن الظروف حدت في نهاية المطاف من جهودي الفردية، ويكفيني لو أن ضوء الحرية الحقيقية يسطع على الهند وعلى بلدان العالم العربي قبل أن يخطفني الموت بعيداً عن مساعيّ الهادفة لخدمة الإنسانية».

كانت تلك العبارات أعلاه قيد الطبع عندما حدثت المعجزة، وبالصدفة السعيدة حدث أن كنت آنذاك في زيارة عمل إلى دلهي، وبالتحديد في شهر يولية (تموز) عام ١٩٤٧م إذ كان ذلك في آخر شهر من عهد الإمبراطورية البريطانية في الهند. أخيراً تجسد حلمي الطويل في أن شهدت في منتصف شهر أغسطس (آب) الهند مستقلة. وها هي تظهر مع باكستان بصفتهما دولتين مستقلتين. سبق وأن قسمت بلاد الهند القديمة على ضوء مناطق عرقية ومذهبية، وجاء ذلك التقسيم بناء على سياسة

عرضية كنت أحرص دائماً على دعمها. جاء فشل الأطراف المتفاوضة للتوصل إلى تدبير معين يتعلق بجماعة السيخ في منطقة البنجاب بمنزلة انتكاسة يرثى لها، وأسفرت تلك الانتكاسة عن مأساة مخيفة. ربما كان من الممكن التكهن بالمشاكل التي مهدت للانفصال بين طوائف الهندوس والمسلمين في الإمبراطورية الهندية القديمة، وبالتالي العمل على منعها. على العموم، تم التغلب على مشاكل هذا الاستقلال الحديث العهد، علماً بأن ذلك النجاح جاء على حساب زهق العديد من الأرواح. وأخيراً استقر المطاف بهاتين الدولتين وأُنشئت بهما مؤسسات قابلة للنمو لم يشبْها أو يفسدها سوى تعنت موقف الطرفين من قضية كشمير. إن ما يكفي للمساءلة عن مدى حكمة الحكومة البريطانية في قرارها باتخاذ خطوة كان يتوجب عليها أن تتخذها قبل الحرب العالمية الثانية هو حقيقة أنه تقرر أن تبقى هاتينك البلدان في الوقت الراهن أعضاء في الإمبراطورية البريطانية، وأن تستمرا بعد استقلالهما في الحفاظ على روابطهما مع الكومنولث البريطاني.

وبالمناسبة أقول: -ولو أن بعض الناس لن يوافقوني على رأيي- إن قناعتي التامة بأن الهند بصفتها بلداً مستقلاً قد حظي بعرفان وإعجاب العالم، إذ أفرز واحداً من أعظم رجال الساسة المعاصرين في العالم، إن لم يكن في الواقع أعظمهم على الإطلاق. تشرفت في إحدى زياراتي إلى دلهي، والتي سبق وأن أشرت إليها، بأن قابلت باندت جواهرلال نهرو بعد أن كنا زملاء دراسة في كلية ترينتي بجامعة كامبردج. وبقيت منذ ذلك التاريخ أتابع النجاح الذي حققه ذلك الرجل بصفته زعيماً لا يمكن الاستغناء عنه في بلد يافع يواجه المشاكل القديمة والحديثة الناجمة عن السياسيات الدولية وعن الأجهزة الإدارية الحكومية المحلية. تعاظمت منزلته ومكانته مع تعاظم المسؤوليات التي ألقتها الظروف على عاتقه.

إنني لا أكن له سوى الإعجاب البالغ لرفضه الثابت في إلزام بلاده في الوقوف إلى جانب أي من المعسكرين المتحاربين، الأمر الذي جعل دول العالم على مدى عشر سنوات من السلام الاسمي الصوري تقف قلقة مترقبة تطور الأوضاع. لا يمكن القول بأنه كانت لديه نزعة شيوعية لكنه صرح على الملأ بأنه ليس مهتماً بالاستعدادات الحربية التي كانت تقوم بها دول الكتلة الغربية. لقد كان حقاً رجل سلام، ومما يؤكد ذلك موقف الحياد الإيجابي الذي اتخذته العديد من دول العالم حياله. وما هو محتمل أن تصرف الدول العربية جاء متأثراً إلى حد كبير بنهج نهرو العملي. جاء انتصاره على تعنت فرنسا في قضية أملاكها السابقة في الهند بصفته ثمرة لأناته وصبره الدبلوماسي.

إنه من الصعب الشك بأن جلجلة سيوف البرتغال ستذعن في نهاية المطاف للضغوط السلمية نفسها. كانت نقطة ضعفه الوحيدة التي طرأت على حساباته هي فشله في تسوية الجدل حول منطقة كشمير عن طريق المفاوضات المباشرة مع باكستان، والتي كان من الممكن أن تسفر عن حق مشروع في دمج كشمير في فلكها كما سبق وأن حصل للهند بالنسبة لموضوع حيدر آباد. إن مسألة فيما إذا كانت الهند ستبقى بشكل دائم أو بشكل مؤقت ضمن منظومة دول الكومنولث هو أمر تقرره مقتضيات الحرب التالية، والتي يمكن أو لا يمكن أن تحدث. وإلى أن تحدث تلك الحرب ستبقى الهند بمنزلة شذوذ عن القياس غير ضار أو مؤذ: يتمثل ذلك الشذوذ في اسم الجمهورية المعلن عنه باللغة الإنجليزية، وفي موضوع الحفاظ على اللغة الإنجليزية مؤقتاً بصفتها وسيلة رسمية للغة وفكر الهند. سيستغرق أمر التخلص من كافة ما ورثته الهند عن الحكم البريطاني زمناً طويلاً، إلا أن نهرو الذي ناضل بعزم ضد هذه المخلفات سيكون آخر من يعتقد بأن المنافع التي

حصلت عليها الهند من الاستعمار البريطاني هي مكاسب ذات قيم ثابتة وباقية. لم تسر الأمور مع باكستان -التي قسمت إلى شقين بفعل حادث جغرافي- بالسلاسة التي تمت بها أمور الهند.

إن موت أبطال باكستان قبل حادثة التقسيم علاوة على كوارث مأساوية أخرى أصيبت بها -ناهيك عن التنازع المحتوم بين شطري البلاد-. جميعها أفضت إلى حالة من الضياع وعدم الاستقرار. وأشير هنا إلى أن محمد علي جناح ولياقت علي خان كانا من بين الأبطال الذين رحلوا عن باكستان قبل التقسيم. وهناك أيضاً ما يدل على وجود فساد في وظائف الدولة على أعلى المستويات، كما أن هناك مؤشرات لدوافع حقيرة تسعى من خلالها بعض العناصر في باكستان للتوصل لمناصب قيادية في أمور سياسية ودينية كما هي الحال في دول إسلامية أخرى من منطقة الشرق الأوسط. تتم هذه الأمور بالرغم من أن الباكستان هي حالياً جزء من منظومة دول الكومنولث، الأمر الذي ربما يشكل عقبة جدية في وجه مثل هذه الطموحات. كما أن حلف بغداد الذي أصبح الآن يربط ما بين باكستان وتركيا والعراق وإيران وبريطانيا هو عامل آخر من المرجح أن يكون له دور في عدم تشجيع أي تحرك نحو إيجاد تعاون كامل بين باكستان والدول العربية، طالما أن التوجيهات الحيادية عند الدول العربية ما زالت قائمة. لكن مشاكل البلاد الرئيسة هي مشاكل داخلية أكثر منها مشاكل دولية، كما أن البلاد بحاجة لحكمة وجهود قادتها لإنقاذ البلاد من الغرق. يجب أن ترتكز الجهود على البناء والتطور الداخلي بدلاً من القيام باستعدادات عسكرية، وصرف المساعدات الأجنبية عليها بقصد الدفاع عن البلاد. علاوة على مشكلة كشمير التي هي مشكلة جدلية تدور في حلقة مفرغة، فإنه ليس لباكستان سبب يدعوها للخوف من الهند. ويجب أن لا

يكون من الصعب التوصل إلى تسوية مع أفغانستان ومع جماعات الباتان التي تقطن المناطق الحدودية الشمالية الغربية. إن جميع هذه الأمور هي أمور فضفاضة ناجمة عن مشاكل ورثتها البلاد عن الحكم البريطاني السابق.

كان لبورما نصيب في عطية وهبة الاستقلال الذي مني به شركاؤها القدامى في زمن الهند البريطانية. حصلت بورما على الاستقلال الكامل عن الكومنولث البريطاني وعن الإمبراطورية البريطانية أيضاً. ولم يعترض أيّ طرف من أطراف هذه الصفقة على هذا الاستقلال، لكن لدى بورما من المشاكل الجادة والخطرة ما يزيد عن مشاكل كل من الهند وباكستان: فالعدو الأجنبي يقف على عتبات أبوابها، والنزاعات الداخلية تتأجج بداخلها، كما أنها تواجه مشكلة مستعصية تتعلق بموضوع إعادة البناء. وهذا الموضوع نجم عن التدمير الشامل لكافة ممتلكاتها الرئيسة خلال الحرب. وعليه فإن أمنية كافة أصدقاء بورما هي أن يروها قادرة على التغلب على مشاكلها، واستعادة صناعاتها القيمة على الشكل المزدهر الذي كانت عليه قبل الحرب. ذلك أيضاً ما يتمناه لها كل أنصار حق الشعوب في أن تكون حرة في إدارة شؤونها بطريقتها الخاصة. والتاريخ وحده كفيل بأن يحكم على نزاهة وقدرة أولئك الذين وقعت على كاهلهم مسؤولية تحقيق الحرية.

لم يخطر على بالي أبداً أنني سأعيش لأرى الهند البريطانية وهي تتحول إلى ثلاث مناطق حكم تتمتع باستقلال تام. إذ جاء ذلك نتيجة لعمل مهذب رؤوف قامت به بريطانيا، يهدف إلى إعادة توحيد البلاد. إن من حق حكومة العمل الحالية أن تتمتع بنصيب الأسد؛ لأنها في الحقيقة قبلت تطبيق النتيجة المنطقية لسلسلة طويلة شاقة من المحاولات والتجارب التمهيدية، والتي كانت جميعها تتجه وبشكل متعنت نحو التوجه نفسه. لكن علينا أن لا ننسى أن نتقدم بالشكر

والإطراء للرأي العام البريطاني الذي لم يبد فقط قبوله وإذعانه لذلك المشهد الختامي بل بادر قبل قادته في المطالبة بتسوية تلك المسألة المثيرة للجدل. ربما يعود الفضل في التحول الدقيق الذي طرأ على روح البيت الهندي قبل حوالي عشرين عاماً -وقبل التبرعم الحقيقي للحكم الجدي- إلى اللورد ستانس غيت الذي لا يزال حياً بإمكانه استرجاع الأعمال الخلاقة التي قام بها ودج وود بن وليشيد بنتائجها. كان للمثل الذي نهجته بريطانيا في الهند أصداءه ونتائجه في أماكن أخرى. ولولا النهج البريطاني هذا لكان من الصعب على إندونيسيا أن تحصل على استقلالها بتلك السرعة من هولندا. كما أن هذا النهج العظيم مهد الطريق لدمج كل المستعمرات الفرنسية في الهند في جمهورية واحدة جديدة. كما قدمت بريطانيا بنفسها هدية العضوية المجانية لسيلون لتدخل في منظومة دول الكومنولث.. وأصبحت سيلون العضو الند في تلك المنظومة علماً بأن المنظومة نفسها كانت قد ولدت فيه. عملت سيلون ومنذ فترة قريبة على تصفية حساباتها مع مصر وذلك على أساس تتمكن بموجبه وخلال فترة قصيرة من أن تعيد لنفسها كامل الاستقلال الذي كانت في مرحلة من المراحل تتمتع به، والذي خسرته بسبب الأخطاء التي ارتكبتها خلال أيام غناها في منتصف العهد الفيكتوري. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل تمكن السودان أيضاً من تحقيق استقلال كان بمنزلة جزء مكمل وملازم للتسوية الجديدة مع مصر. وفضل السودان الاستقلال التام على أي شكل آخر من أشكال الوحدة مع جارتها مصر.

وباتجاه الغرب أصبحت ليبيا الآن تتمتع بسيادتها، وأصبحت أسرة السنوسي تحكمها بعد أن حققت استقلالها بالحرب ضد السيطرة الإيطالية. هذا؛ ولا يمكن اعتبار ليبيا بصفتها دولة قادرة على النمو والتطور دون دعم بريطاني وأمريكي. إن

حق هاتين الدولتين في تطوير قواعد إستراتيجية على الأراضي الليبية هو بمنزلة تعويض عن المساعدات الفنية والمالية التي تحصل عليها ليبيا من أمريكا وبريطانيا. أما موضوع احتمال أن يكون من الأفضل لليبيا لو أصبحت جزءاً لا يتجزأ من مصر فأقول: إن تلك هي مسالة فيها نظر، ويمكن أن يُطرح حولها العديد من وجهات النظر. . لكن من المؤكد أن خلق أسرة ملكية أخرى لتحكم هذا البلد الفقير وتجعل منه مملكة هي عملية يمكن أن تجعل مثل ذلك التطور أمراً غير وارد إن لم يكن مستحيلاً. وتشكل المصالح الشخصية العقبة الرئيسة أمام الوحدة العربية التي تحبذها الشعوب العربية في حين تستاء منها قادتها.

وليكن الأمر أيّاً ما كان فإن السيادة المستقلة الفعلية أو المرجوة لمصر والسودان وليبيا، ناهيك عن الوضع في أثيوبيا، تتجه بعض الشيء نحو إرضاء الطموحات الوطنية لبعض العناصر التي يمكن عدها جزءاً من العالم العربي: نستثني من ذلك مثلث الصومال المقسم إلى ثلاثة أقسام متساوية، وكذلك الأقاليم الخاضعة للسيطرة الفرنسية[1] والتي تقع إلى غرب الصحراء الطرابلسية للتقاسم مع بقية الدول الإفريقية مستويات مختلفة من الاستقلال. أصبح من الوشيك أن تدب الحياة في تلك المستويات علماً بأنها آخذة في التفتح في بعض المناطق على شكل تحدٍ لسيادة الحكم الأوروبي المطلق. إن تجربة الدول الأخرى التي عانت من فترة قريبة من المعضلة نفسها لتؤكد على حتمية تحرر هذه الشعوب من السيطرة الأجنبية. وإنه من العبث القول بعدم قدرة هذه الشعوب على حكم نفسها بنفسها، خاصة بعد أن تم إيجاد العديد من الدول التي لا تملك مقومات الاستمرار والتطور. كما تمكن العديد

(١) المغرب وتونس والجزائر في بداية الثورة. (المؤلف).

من الدول الأخرى -التي تعد وفق المقاييس الغربية ليست أكثر تقدماً- من تحقيق استقلالها أو أنها تركت تعمل من أجل تحقيقه. وباعتبار أنه ليس لدي تجربة في إفريقية باستثناء الدول العربية والدول الإسلامية في الشمال الإفريقي فإنني أتردد في التعبير عن رأيي في أمور مثيرة للجدل تخص ما كان يعرف سابقاً بالقارة السوداء. لكنه من الحماقة أن نطالب بتطبيق الديمقراطية أو في فرض الديانة المسيحية وسط جو من التمييز العنصري والسياسي. ربما يكون التمييز العنصري والأشكال الأخرى من التعصب العرقي مجرد نظريات يمكن الدفاع عنها لكنها لا تتفق مع روح عالم يدعي أنه قائم على ميثاق الأمم المتحدة، دون الخوض في موضوع إعلان حقوق الإنسان، وهي مواضيع قد تلقى معارضة من قبل بعض الدول العظمى.

أما فيما يتعلق بالمملكة العربية السعودية فالوضع فيها مرض إلى حدٍ ما على الرغم من وجود بعض ما يعكر صفو صورتها بشكل عام. حصلت سوريا ولبنان على استقلالهما التام من فرنسا، كما أزاح اليمن عن كاهله أصفاد الإمبراطورية العثمانية. وكانت المملكة العربية السعودية كما هي حالها في السابق حرة بعيدة عن جو الاستعمار، إذ تمكنت من ضم المناطق التي خضعت سابقاً للاستعمار التركي مثل: منطقة الأحساء ومناطق الحجاز وعسير. وتم الاعتراف عالمياً بالأردن والعراق بصفتهما مملكتين مستقلتين، علماً بأن استقلالهما كان مشروطاً ببعض التحفظات من قبل بريطانيا. وكانت تلك التحفظات مقبولة لدى حكام هذين البلدين أكثر من كونها مقبولة لدى شعبيهما ولدى الدول المجاورة. فبالنسبة للوضع في الأردن جاءت القيود المفروضة على استقلاله نتيجة حتمية لوضعٍ لا يمكنه من التقدم دون مساعدة خارجية، وكان من الصعب الحصول على المساعدات البريطانية الضخمة المقدمة للأردن دون فرض بعض الشروط عليه.

أما العراق فكان بلداً غنيًا يستطيع تدبير أموره بنفسه على الرغم من أن حكومته شعرت بالحاجة إلى بعض الضمانات الفاعلة التي كان بالإمكان أن تحصل عليها فقط من بريطانيا بسبب تهديدات محتملة يمكن أن تواجهها من قبل أعدائها في الداخل. على العموم يمكن القول: إن الدول الرئيسة في شبه الجزيرة العربية كانت على انسجام تام مع طموحاتها الوطنية، وكانت محمية تماماً من أي تطفل يمكن أن يطرأ عليها بسبب عضويتها التامة في جامعة الدول العربية. كما كانت مطمئنة من احتمال انضمامها إلى منظمة الأمم المتحدة باستثناء الأردن[1]. كان الوضع مرضيًا باستثناء عامل واحد، هو وجود بؤرة من عدم الانسجام تمثلت في دولة إسرائيل التي هي الأخرى لم يكن باستطاعتها التقدم والاستمرار دون مساعدات أجنبية، كما أنها لم تخلُ من صعوبات اقتصادية. لم تبد إسرائيل أي تنازلات في موقفها تجاه الدول العربية المجاورة، علماً بأنها لا تشكل خطراً حقيقياً على أي بلد عربي مجاور[2]. إن النزاع الذي لا يمكن تطويقه بينها وبين الدول العربية هو مسألة تتعلق بأمور عرقية وأخرى سياسية. وإن العرب لن ينسوا أبداً هزيمتهم في الحرب التي أسفرت عن إقامة دولة أجنبية في وسطهم. إذ كان اللاجئون هم الأكثر تضرراً من هذا الوضع المتوتر. نجمت المشكلة الفلسطينية من جراء طرد أو هجرة عرب فلسطين من ديارهم، وكذلك بسبب الهجرة الجماعية لليهود، أو إجبارهم على ترك مجتمعاتهم في مختلف الدول العربية التي سبق أن آوتهم، واعتنت بهم خلال فترات تشتتهم. لم يكن العرب على عداء مع هؤلاء اليهود بل كانوا على

(١) انضمت إلى عضوية الأمم المتحدة. (المؤلف).

(٢) يتناقض رأي المؤلف هنا مع أحداث التاريخ منذ بداية المشكلة الصهيونية إلى اليوم، حيث أصبحت إسرائيل مشكلة حقيقية هددت الأمن والاستقرار في المنطقة، واحتلت الأراضي العربية وهجرت سكانها الأصليين وقتلت الأبرياء، كما توسعت باحتلال أراضي الدول العربية المجاورة.

عداء مع اليهود الأجانب الذين غزوا فلسطين تحت الحماية البريطانية والأمريكية، وبتشجيع منهم؛ لذلك ليس من الصعب على العديد منهم إن لم يكن على أكثريتهم أن يجدوا مبررات وذرائع تتعلق بأصول انحدارهم من يهوذا وهو ابن يعقوب وَجَدّ إحدى القبائل اليهودية، كما أنه من السهل عليهم تقفي أثرهم التاريخي المتصل بالعرق السامي.

تواجه شعوب الخليج العربي والمحيط الهندي سلسلة من المشاكل، لكن من نوع آخر، وبالتحديد من نوع مخلفات التنافس الاستعماري الذي يرجع إلى حقبة التوسع الهولندي والبرتغالي للبحث عن أسواق لمنتجاتهم ولتجارتهم. أصبح الآن الشاطئ الفارسي من الخليج العربي في أيدي الإيرانيين، وبعيداً عن أي سيطرة أو تدخل أجنبي. وينطبق ذلك حتى على الخطوط الجوية التي كانت سابقاً تحلق على الخط الجوي الواصل بين البصرة وكراتشي، والآن تُركت كافة مناطق الشاه لرغبتها وإرادتها، مع الأخذ بالحسبان توسع شركة النفط الإيرانية البريطانية، والترتيبات اللاحقة التي تمت مع الرابطة الدولية لاستخراج النفط الإيراني نيابة عن إيران نفسها، التي ستحظى من المصادر المالية أكثر بكثير مما اعتادت أن تحصل عليه في ظل النظام الحكومي القديم. لكن مناطق شواطئ الخليج العربي كانت في حالة مختلفة تماماً عن ذلك. باستثناء جزء من مناطق الساحل السعودي، أصبحت المناطق الساحلية الممتدة من الكويت إلى مسقط، ومن مسقط إلى عدن تحت شكل من أشكال السيطرة والإشراف البريطاني. فكانت هذه المناطق في وقت من الأوقات أكثر من مجرد بوابات يتم العبور منها إلى المناطق الداخلية في الجزيرة العربية.

إن اكتشاف النفط واستخراجه بكميات كبيرة قد حول الكويت إلى وحدة من أكثر الوحدات السياسية في العالم غرابة. وبدى لكافة الأطراف المعنية أن الكويت

كانت تنفق مصادر ثرواتها تحت نوع من الإشراف الوصائي. ولولا تلك الوصاية لساد البلاد حالات من البذخ والفساد، كما كانت الحال في العديد من دول منطقة الشرق الأوسط على الرغم من أنها تمتعت بنصف القدر من الثروات. ومن غير المستبعد القول: إن الإسراف يتم على الرغم من الوصاية. كان الواحد منا يسمع قصصاً عن مراكب شراعية باهظة الثمن، وعن وجود مقابض مصنوعة من الذهب الخالص لكافة أبواب قصر الحكومة وما إلى ذلك من بذخ.

أما من باب المقارنة النسبية فيمكن القول أيضاً إن البحرين غنمت أيضاً من الصناعة النفطية؛ إذ كان الإشراف على الأمور المالية فيها يتم بالتساوي. كما عاشت قطر أيضاً الظروف نفسها وكان من المتوقع لها أن تصبح مركزاً مهماً لاكتشاف النفط لكن تحت الإشراف البريطاني. كان من السابق لأوانه الجزم بأن المحميات الصغيرة الأخرى الواقعة على شاطىء الخليج العربي ستضم إلى قائمة الدول المنتجة للنفط. إلا أن بوادر ذلك الاحتمال أسهمت في ظهور بعض النزاعات الدولية حول قضية ضم واحة البريمي التي تبعد مئة ميل نحو الداخل. كانت السعودية وبريطانيا طرفين في ذلك النزاع. وقد تم الاتفاق بينهما فيما بعد على عرض هذه القضية على هيئة تحكيم دولية تضم ممثلاً عن كل طرف، إضافة إلى ثلاثة أعضاء محايدين من بلجيكا وباكستان وكوبا. ولتحديد جدوى ذلك الخلاف وقيمته الفعلية انخرط العلماء الجيولوجيون الأمريكيون والبريطانيون في التنقيب عن النفط في مناطق تابعة لكل منهما على التوالي. ففي صيف عام ١٩٥٥م انهارت إجراءات التحكيم التي كانت تتم في جنيف. بعدها قامت بريطانيا باحتلال كافة المناطق المتنازع عليها وأصبحت بفعل الأمر الواقع تمارس

سيادتها على المناطق الممتدة ما بين قطر وعدن تلك التي تشكل على وجه التقريب حوالي ثلث مساحة شبه الجزيرة العربية.

وبالقدر الذي يمكن التعرف عليه من خلال سحابات الضباب التي خيمت على السياسات النفطية يمكن القول: إن الجيولوجيين لم يتمكنوا من التحقق من وجود ترسبات نفطية كبيرة في أي جزء من أجزاء هذه المناطق التي أصبحت خاضعة للإمبراطورية البريطانية. وأصبح من المحتمل أن يخيم الفقر على سكان تلك المناطق وأن يعيشوا في فقر اعتادوا عليه منذ زمن طويل. وتلك حالة تمكن سكان المناطق الأخرى من الخليج العربي من الهروب؛ لأنه إذ لم تحدث المعجزة ولم يكتشف كنز الكويت المدفون. في تلك الأوقات أصيبت العلاقات السعودية البريطانية ببعض التوتر الذي وصل لنقطة الانفجار على الرغم من أن القضايا التي كانت موضع خلاف بين البلدين كانت تناقش عبر القنوات الدبلوماسية[1]. وكون هذه المناطق محميات تابعة للسيادة البريطانية فلم تكن أي منطقة منها مؤهلة للدخول في عضوية جامعة الدول العربية، علماً بأنه كان من الممكن أن يسهم دخولها في تحسين مصادر تلك الجامعة.

اقتضت الحالة الطبيعية الجغرافية أن تكون الجزيرة العربية الواقعة بين ثلاثة بحور وحدة متكاملة، لما لها من تشابه على الصعيد الجغرافي والجيولوجي والعرقي. وحتى في أيام السفرات البطيئة الطويلة التي كنا نقوم بها في أرجاء الصحراء، كنا نشاهد بالبرهان القاطع تنقل الناس بين مناطق شبه الجزيرة العربية بحثاً عن الماء والكلأ أو الأراضي الصالحة للزراعة. أما اليوم وبعد أن طوت وسائل الطيران

(١) قطعت المملكة العربية السعودية في عام ١٩٥٦م علاقاتها الدبلوماسية مع بريطانيا نتيجة لأزمة قناة السويس. (المؤلف).

والسيارات والسكك الحديدية البعد بين تلك المناطق، نجد أن البلاد أصبحت مقسمة إلى جيوب ذاتية الاحتواء بعضها غني والبعض الآخر يعاني من الفقر الشديد، تفصل فيما بينها كافة أشكال الأمور السياسية والاقتصادية مثل قوات حرس الحدود، وخفر السواحل، ومراكز الجمارك، وأنظمة الجوازات وما شابه ذلك. إنه من غير المحتمل أن يتحقق الحلم العربي في الوحدة الشاملة لكن ما هو مؤكد أن التوزيع غير المتساوي لثروات البلاد سيسبب مشكلة شيطانية، سواء للدولة التي تملك الكثير أو للدولة التي لا تملك شيئاً.

إن ما يمكن أن يهيئ الفرصة لدول شبه الجزيرة العربية لتقوم بدور مهم في القضايا الدولية هو جمع كافة الثروات الطبيعية في العالم العربي ووضعها في خدمة كافة العرب. ولكن هناك العديد من المصالح الشخصية المتأصلة في النفوس وتلك المصالح ستحول دون تحقيق ذلك كما ستحول حتى من مجرد التفكير فيه. وبسبب التمسك بوسائل الرفاهية الغربية لم يحدث في الواقع أن تجاوز الفرد العربي -في مفهومه لمعنى الولاء- نطاق الأسرة ونطاق القبيلة. إن غياب الروح الجماهيرية العامة في أي حس وطني كان ولا يزال بمنزلة ظاهرة جلية. أما بخصوص المملكة العربية السعودية فإن شريحة كبيرة من كبار الرسميين الذين يتقاضون مرتبات كبيرة لم يكونوا مهتمين بالدولة، وذلك لكونهم غرباء أتوا من بلدان عربية مجاورة جذبتهم إلى أرض الجزيرة العربية فرص العمل التي عادت عليهم بالكسب الوفير[1].

(١) ما يشير إليه المؤلف هنا قد يكون حالة استثنائية معتمدة على نماذج لا يمكن تعميمها أو نتيجة لما يعرفه من ظروف ساعة كتابته لهذا الكتاب. والواقع أن أكثر من عمل مع الملك عبدالعزيز من الأخوة العرب كان لهم دور مهم وفاعل في كثير من القضايا السياسية والتنموية المختلفة التي مرت بها المملكة منذ تأسيسها على يد الملك عبدالعزيز -رحمه الله- حتى تقلد زمام البلد أبناؤه المخلصون.

يعد التحول الذي طرأ على مناطق الشرق عبر فترة زمنية قصيرة نسبياً واحداً من التحولات المذهلة التي حدثت في تاريخ الإنسان. جاء ذلك التحول بعيداً عن الثورات التي عادة ما تلازم مثل ذلك التحول. لم يحدث اقتتال بين أولئك الناس الذين حققوا الاستقلال، بل على العكس قامت القوات التي أطاحت بها بعض هذه الدول في حربين ماضيتين بالعمل على نصرة أسيادها واستمرارهم في الحكم. ومما يثير الفضول هنا أن الدولة الوحيدة التي لم تشارك فعلياً في أي حرب ولم تسهم مادياً في أي منهما كانت السعودية. وعلى أعتاب اندلاع الحرب الأولى كانت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وهولندا وتركيا هي القوى المسيطرة على كافة المناطق الشاسعة والممتدة من المحيط الأطلنطي وحتى المحيط الهادي.

استمر الوضع على ذلك الحال بدءاً من بداية الحرب العالمية الثانية وحتى نهايتها مع استثناء واحد، هو أن تركيا كانت قد سحبت نفسها من تلك المنافسة. ومع ذلك وخلال عقدين من الزمن أو نحو ذلك تفتتت هذه الإمبراطوريات ولم يبق من ممتلكاتها إلا القليل. فلم يعد لإيطاليا وهولندا شيء -باستثناء غينيا الجديدة التي كانت تحكمها هولندا والتي أصبحت على خلاف حولها مع إندونيسيا- واحتفظت فرنسا -ولكن بشكل غير مستقر- بقبضتها على مناطق شمال إفريقية، كما احتفظت بريطانيا -ولكن ليس بالشكل السهل- على ممتلكاتها في مناطق الشرق الأقصى، كما احتفظت بسيادتها على طول الشريط الساحلي الممتد على طول الخليج العربي. أخذت ظروف الانتداب منحى الاستسلام القديم. وعلى نحو شبيه بنبات الفطر الذي يتبرعم بين ليلة وضحاها، انتقضت الدول المستقلة ووثبت من بين أنقاض تلك الإمبراطوريات: فظهرت الهند، وباكستان، وإندونيسيا، وبورما، وسيلون، وفيتنام، ولاوس، وكمبوديا، وغامبيا، والحبشة،

والسودان، ومصر، وليبيا، وسوريا، وكذلك لبنان، وإسرائيل، والأردن، والعراق، واليمن، والسعودية. أما الدول الأخرى التي لم تحقق استقلالها والذي ستحققه دون شك في يوم من الأيام، فهي دول تقع خارج نطاق اهتمامي.

على الرغم من أن تجربتي كانت محدودة لكنها كانت غنية ودقيقة، خاصة فيما يتعلق بالأمور التي فرضتها علي أحوالي وظروفي الشخصية. ولسوء الحظ لم يتم انتشار حركات الاستقلال في الشرق دون حدوث بعض الخسائر التي كان من أبرزها الخسائر التي طرأت على الهيكل الاجتماعي والثقافي للعديد من هذه الدول. قامت هذه الدول بمحض إرادتها بتبني النمط الغربي بصفته شيئاً مثالياً تسعى إلى تحقيقه فيما بعد. لا يمكن للإنسان أن يعبد الله وشيطان الجشع وحب المال في آن واحد. لكن ما يستدعي التساؤل هو أن ما يوصف بالطبقة المتوسطة والطبقة الغنية في الدول الشرقية -والتي سبق لها أن استفادت على مدى بعض الأجيال من الثقافة الغربية- قد انبهرت بالمنجزات المادية التي حققها مدرسوها. أصبحت تلك الطبقات تنظر بشيء من الازدراء إلى تصرفاتها السابقة، علماً بأنها تميزت بشيء من الإيثار وحب الغير. بدأت هذه الطبقات تنسى أن الانتصارات المادية التي حققتها دول الغرب كانت دائمة مدعمة بحرص حقيقي على الجوانب الروحية. ربما لم يكن ذلك الحرص دينياً محضاً، بل كان حرصاً على الجوانب الفنية ومطلبات البراعة الحرفية التي تميزه عن أي حضارة من الحضارات. ولأورد هنا مثالاً بسيطاً أوضح به أوجه التعارض بين الشرق والغرب، أورد موضوع لوحة مانيس الفنية التي اشتراها مالكها في عام ١٩٣٨م بمئتين وثمانين جنيهاً إسترلينياً وبيعت في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من عام ١٩٥٤م لصالة عرض «تيت» بمبلغ يزيد عن سبعة آلاف جنيه. ومن باب المقارنة أقول إن أحد باعة السجاد في جدة

- الذي كان يبيع أيضاً قطعاً من النسيج العادي الخشن المستخدم لتغطية أرض الغرف بمعدل جنيه ذهبي واحد للياردة المربعة- دهش لرغبة «تي آي لورنس» في شراء قطعتين صغيرتين من السجاد القديم كانتا تغطيان أرضية متجره المتسخة. سُر هذا البائع جداً لكونه تمكن من أن يبيع للورنس سقط المتاع ذلك مقابل خمسة جنيهات. وأعتقد أنه بعد أن تم تنظيفها وإصلاحها بلغت قيمة الواحدة منها ١٥٠ جنيها إسترلينياً.

وفي حدث آخر تم في حوالي عام ١٩٣٠م اندفع الناس إلى معرض المنتجات الهندية من نسيج النول الخشن، وأعجب الناس برخصها وسرعة إنتاجها. ووقف إلى جانبي رجل من البدو المحليين، وكان يرتدي عباءة من الوبر المطرز بشكل رائع وقال لي: إن تلك العباءة في نظره كانت مجرد عمل تافه تخيطه النساء البدويات وأنها لم تكن لتساوي أي قيمة. وأعتقد أنه كان بإمكاني شراءها منه بمبلغ زهيد أو أن أعطيه بدلاً منها رداء من معروضات المعرض لكنني أحجمت عن خداعه.

الحقيقة أنه في بعض دول الشرق لا يزال هناك بعض التصرفات التي تتميز بشيء من الحب لهذه الأشياء، والسبب في ذلك يعود لإعجاب العرب واهتمامهم الطبيعي بالآثار المحلية، وبفن وموسيقى تلك المناطق. لكن في معظم دول الشرق يبقى المعيار الحقيقي لقيمة هذه الأشياء متجسداً في المبلغ الذي تباع به هذه الأشياء في صالات البيع. كما أن لدى العديد من الناس فكرة مبالغاً فيها للقيمة المالية الخاصة بهذه القطع الأثرية سواء أكانت تمثالاً أم قطعة معدنية أم مخطوطاً. وتلك المبالغة نابعة فقط من كونها مجرد قطعة أثرية. كما ينظر إلى كل مخطوط على أنه جزء من المخطوطات الأثرية. يُفاجأ أصحاب القطع النقدية الذهبية عندما يخبرهم شخص متخصص بأن قيمة تلك القطع لا تزيد عن قيمة الذهب الموجود فيها.

ومع ذلك حدث في الثمانينيات أن بيعت أحجار عادية كانت تستخدم في بناء سكن عادي مقابل أغنية يؤديها «تشارلز هوبير» لكن تبين فيما بعد أن تلك الأحجار كانت من أعمدة بلاط تيماء التي تحمل نقشاً حجرياً مهماً باللغة الآرامية، وهي معروضة حالياً في متحف اللوفر. عملت جاهداً وعلى مدى عدة سنوات في إقناع سلطات المملكة العربية السعودية بضرورة الاعتناء بمتحف جدة الذي طوره ونظمه رجل إيرلندي يدعى د. ل. غبس. فقد بذل هذا الرجل في تطويره الكثير من الجد والتفاني في العمل. والجدير بالذكر أن غبس كان يقوم بذلك إلى جانب عمله في وزارة البترول والثروة المعدنية السعودية. ومن بين المعروضات التي يحتويها ذلك المتحف هناك أشياء جمعتها بنفسي وبمساعدة أصدقائي على مدى السنوات القليلة الماضية. لم يكن لأحد من الشخصيات التي تحدثت إليها علم بوجود تلك الأشياء، كما أنه لم يكترث أي منهم بها ولم يزر أي منهم ذلك المتحف. سبب لي رحيل غبس عن السعودية بسبب انتهاء عقد عمله بعض المخاوف حول مصير تلك الأشياء[1].

لا بد الآن أن أتوقف عن هذا الاستطراد وأن أتحدث عن العرب الذين كانوا في الماضي القريب فخورين بشكل جامح بماضيهم المجيد، وبثقافتهم العريقة، وبنسبهم النبيل، وبكرمهم وسمعتهم القبلية، وبدينهم وإيمانهم برحمة الله يوم الحساب. نجدهم اليوم قد أشاحوا بوجوههم عن كل هذه الأمور وكلهم قناعة بأن الأساليب الغربية كفيلة وحدها بأن تؤمن لهم في دار الدنيا كل ما يمكن أن يحتاجوا إليه لتحقيق الثروة والراحة، ومقومات إطلاق العنان للأهواء والرغبات الشخصية. في

(١) قرر الملك سعود بناء متحف في الرياض يضم هذه المجموعات. (المؤلف).

الماضي كان من المعيب جداً أن تمر بخيام البدو في الصحراء دون أن تنعم بحسن ضيافة ساكنيها. حدث في إحدى المرات أن تعرضت لإطلاق نار، وأجبرت على العودة إلى منطقة مأدبا في الأراضي الأردنية؛ لكوني اقترفت جرم تجاهل تلك العادات بسبب رغبتي في الوصول المبكر إلى عَمَّان. وكان من المعيب أيضاً أن تمر بجماعة تحلب الجمال دون أن تشرب من حليبها المتدفق من ضروعها. لكن تغيرت الأمور وأصبح البدو الآن يمزجون الحليب بماء آبارهم ليحققوا المزيد من الأرباح. والفارق المؤسف الآخر بين النظام القديم والنظام الجديد هو أنه في الأيام الخوالي كانت راعية الأغنام لا تخاف على شرفها أو سلامتها عندما تواجه رجلاً في البراري، لكنها أصبحت اليوم عند سماع صوت عربة قادمة تهرب تاركة قطعانها مهرولة نحو أقرب مرتفع من الأرض لتتفادى الأذى أو الإهانة. وفيما يتعلق بمثل هذه الأحداث أقول بأن السمعة السيئة لحقت بالسائقين وبرجال قوافل الصيد.

ربما يحتاج موضوع التغييرات التي دفعت بالمرأة إلى ذلك الوضع -والتي جاءت نتيجة لتبني العادات الغربية وشيوعها- فصلاً كاملاً إن لم يكن كتاباً. يمكن أن تحسن المرأة موضوع التحدث عن هذا الجانب لكن ليس هناك العديد من النسوة الأجانب اللاتي يتعرفن عن كثب على مجالس الحريم في السعودية، وبالتالي يمكنهن تدوين التغيرات التي طرأت على حياة المرأة منذ ذلك الحين. علاوة على أن سرية أعمالهن وأنشطتهن تمنعهن من التحدث بصراحة عن تلك الأمور. ومع ذلك يمكن أن أشير إلى بعض التغيرات التي كثر الحديث عنها وأصبح من الممكن لمتتبع الأمور أن يلاحظها. وبهذا الخصوص هناك موضوع واحد سبق أن شد انتباهي بشكل ملحوظ: عندما قدمت للمرة الأولى إلى الجزيرة العربية، وبعد حوالي عشرين عاماً من ذلك التاريخ، ولنقل إلى بداية الحرب العالمية الثانية كانت

المرأة بلا شك الشغل الشاغل للرجل وموضع اهتمامه. وكان الطعام والغذاء يأتي في المرتبة الثانية وذلك أمر طبيعي في بلد جائع.

وبالطبع لم يكن هناك مجال على الإطلاق لإقامة أي علاقة غرامية سرية أو غير شرعية، إذ إن الدين الإسلامي يحرم إقامة مثل تلك العلاقات، علماً أنه كانت تحدث بين الحين والآخر بعض التحولات عن منهج الفضيلة هذا. لكن موضوع النساء كان يطرح وبحرية في المجالس، وخاصة من قبل الشباب الذين كانوا يحاولون ادخار المال للفوز بزوجة، ولتأمين مسببات الراحة لها. وكان هذا الموضوع يطرح أيضاً من قبل رجال متزوجين يحبون نساءهم ويتفاخرون بالصفات الحسنة اللاتي يتمتعن بها. كما كان موضوع المرأة يطرح أيضاً من قبل رجال مفتونين بزوجاتهم وخانعين لهن، لكنهم يتبجحون بعدد النساء اللاتي سبق لهم أن تزوجوهن وطلقوهن. وهنا لا أود التحدث عن الرجال الذين يصبون إلى التمتع بالنساء بين حين وآخر. ويمكن للمرء أن يسمع أيضاً قصصاً عن فضيلة المرأة وطهارتها كما يسمع بعضاً من خداع وإغواء النساء.

حدث أن تحدث الملك الراحل بصراحة عن النساء اللاتي قابلهن في حياته، مثل عماته وشقيقته نوره، وعن بعض زوجاته، وعن سراياه، وعن بناته المحببات لديه. كان الرجال الآخرون يفعلون الشيء نفسه لكن على نطاق ضيق. وكان الانطباع العام السائد يساعد غلى تكوين صورة عن الحياة الأسرية السعيدة التي تختفي وراء البردة التي لا يمكن أن ينفذ البصر من خلالها. إن الشخص العربي شخص واقعي لا يتردد في تسمية الأشياء بأسمائها. . وذلك ينطبق على كل حركة من حركات الجسد سواء أكان ذلك ذكراً

أم أنثى. لكن أسس مجتمع تلك الأيام كانت قائمة على الفضيلة وعلى النحو الذي حدده القرآن وسنة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن باب المقارنة نقول: إنه في الوقت الحاضر أصبح من النادر جداً أن نسمع رجالاً يتحدثون عن المرأة: إذ سنحت لهم الفرصة أن يختلطوا مع النساء الغربيات من فئات اجتماعية مختلفة. لقد أشبعوا رغباتهم وشهواتهم من مفرزات عالم هوليود، وأصبحوا ينظرون إلى المرأة على أنها إحدى متع العالم الجديد في الوقت الذي كان فيه وجودها يستحوذ على تفكيرهم، وكانوا يختلسون النظر للصور النسائية التي كان رجال مراقبة الإعلام يحذفونها قبل السماح لها بالدخول إلى البلاد، خشية أن تسيء لمشاعر وحساسية الناس، وبالتالي تسهم في إفساد تلك المشاعر. ومما لا شك فيه أن الرجال في المملكة يتزوجون وينجبون الأطفال، لكن حياتهم الأسرية لم تعد تحظى بالأهمية التي كانت تحظى بها عندما يودون الهروب من العالم ومن مشاغله. في الزمن الماضي كانت الحياة الأسرية تسيطر على الرجل من بعد صلاة العشاء حتى الفجر، أما اليوم فهناك حفلات العشاء، وأفلام السينما -التي كانت في الماضي تتم بسرية تامة- علاوة على ظهور بعض وسائل الترفيه الأخرى التي يقضي بها الرجال أمسياتهم بعد يوم طويل يقضونه في السعي وراء جشع المال وحب جمع الثروة.

وكان من الطبيعي أن تجد المرأة طرقاً وأساليب تنتقم بها من الرجل؛ إذ أصبح بإمكانها أيضاً إقامة حفلات العشاء والاستمتاع بعروض الأفلام. وأصبحن -بشكل متزايد- يسافرن إلى مصر وسوريا ولبنان وهناك يطرحن خمارهن. وأصبح بإمكانهن أيضاً الوصول إلى فرنسا وجنيف وإلى العديد من المنتجعات في ألمانيا،

حيث يمكنهن العيش مثل أخواتهن الأوربيات: يتناولن العشاء في أفخم المطاعم، ويذهبن إلى المسارح ودور السينما والنوادي الليلية[1].

وبالطبع كن يقمن بالتسوق من أحدث دور الأزياء دون أن يراودهن أدنى قلق بالأمور المادية، كما كان يخطر على بال ربة البيت الأوربية: كن يشترين المجوهرات والعطور والفراء والثياب المزركشة، وكل مسببات الأناقة المتكلفة التي تدخل السرور إلى قلب المرأة.

وطيلة مدة حكم الملك الراحل باستثناء السنوات الأخيرة من حكمه في السعودية احتلت شقيقته نورة -ومن دون أي اعتراف مجد لحقها ولقبها في الأسبقية- مركز الصدارة في عالم المرأة. وبعد موتها في عام ١٩٥٠م حيث صادف ذلك عام اليوبيل الذهبي للملك.

كانت والدة الملك الحالي ما زالت على قيد الحياة، وكانت واحدة من مطلقات والده، لكن الريادة الاجتماعية في تسلسل حريم الملك كانت تمارس من قبل أم خالد، وهي إحدى زوجاته التي كانت تترأس الحفلات التي يأتي إليها النساء المخلصات من أتباع الملك للسلام عليه والمثول بين يديه.

إن الأجيال القديمة آخذة في التناقص. فقد انتهى العمر في عام ١٩٥٤م بإحدى عمات الملك وهي طرفة بنت فيصل التي رحلت عن عمر شارف على المئة عام. وكانت طرفة سيدة فاضلة، لم يكن شيء يعادل إخلاصها وتفانيها لابن أخيها

(١) هذا التعميم غير دقيق من المؤلف ووصفه المجتمع بهذا الشكل غير صحيح رغم وجود حالات فردية داخل المجتمع التي تمارس ذلك.

المشهور سوى ورعها. وكان الملك الراحل دائماً يتحدث عنها بكل الود والإعجاب. أما الجيل المتوسط فلا يزال يمثله أخوة الملك الحالي وهم كثيرو العدد، كما كان هناك من هم أصغر منه سناً. وعلينا أن نجد في خضم هذا التداخل بين الجيلين الخط الذي فصل النظام القديم عن النظام الجديد. وبشكل عام يمكن القول: إنه سواء في العائلة المالكة أو بين سكان المناطق المأهولة أو حتى بين البدو -لكن على مستوى أقل- يعد سن الأربعين مرحلة تمييز واضحة بين الجيل الصاعد وبين الجيل الذي يتبعه مباشرة. كما نجد أن عناصر الجيل الأخير كانوا قد وصلوا إلى سن الرجولة قبل فجر العهد الجديد وحملوا معهم التراث الثقافي التقليدي في العادات والأخلاق والدين الذي يمكن أن تلمسه بسهولة من خلال طبيعتهم في التعامل وأخلاقهم المتميزة. ولا يمكن أن تنطبق هذه المعايير على الجيل الأصغر منهم سناً الذي لم يسبق له أن تعرف على مخاطر الصحراء، ولا على مشاكل الفقر. فقد تجولوا وبحرية في طرقات وشوارع الدول الأجنبية؛ ليكتسبوا عادات وأفكاراً تتناقض مع أصالتهم، ومع كل عادات وتقاليد أبناء عرقهم، وأصبحوا لا يكترثون بنبالة أجدادهم. لكن لم يعد مفهوم النبالة ومفهوم ما يفرضه نبل المولد على الشخص الشعار المناسب في الجزيرة العربية الحديثة، كما دل على ذلك تجوال بعض سكان الجزيرة في الدول الأجنبية. وهنا نشير إلى مقولة عمر الخيام الذي استنبط شعاراً ينطبق على شباب جيل هذا العصر حيث قال: «المال قبل السمعة».

إن ما هو معرض للخطر والمراهنة من جراء سعي الجيل الصاعد وراء الثروة والمنعة هو سمعة المملكة. وها هو الشر يتغلغل في أعماق أرض المملكة، كما أصبح يتغلغل حتى في مناطق القبائل البدوية التي على ما يبدو كانت قد بدأت في فقدان فطنتها وسط التملقات الموحية بالسلام والأمن والرخاء. كما لم يعد هناك

أي وجود للمرشدين القدامى الذين كانوا على علم بكل شبر من أرض الصحراء لحماية أنفسهم وقوافلهم من الأعداء ومن التعرض للبطش، ذهبوا ولم يخلفهم أحد في مهارتهم تلك.

اضطررت مراراً خلال تجوالي في الصحراء أن أوبخ من كان في صحبتي لجهلهم في أمور الصحراء، ولكسلهم ولعدم اكتراثهم في محيطهم الجغرافي. كانوا يرحبون بمثل هذه السفرات؛ لأنها كانت تسنح لهم في اصطياد الغزلان من فوق السيارات. وكانوا يرحبون بها أيضاً من أجل الطعام الذي كان يقدم لهم بشكل سخي، أو من أجل المكافآت المالية التي يحصلون عليها عند انتهاء بليتهم تلك. يمكنني القول هنا: إنني اعتدت أن أسافر مع آبائهم وأجدادهم. وكانوا نعم الرجال، بينما الرجال الحاليون يشبهون في تصرفاتهم الكثير من النساء. وهنا لا أقصد الإساءة إلى الجنس اللطيف. لكن مثل هذه الكلمات تلسع مثل لسعة الدبور. أثرت سنوات السلم الطويلة ورفاهية العيش والتطفل على خيرات الحكومة والبلاط الملكي على هؤلاء الناس، فأصبحوا ليني العريكة، علماً بأنهم أبناء قبائل بدوية متمرسة. أصبت شخصياً بصدمة عنيفة عندما قال لي واحد من عظماء قبيلة قحطان مفتخراً بأن أحوال اثنين من أبنائه كانت تسير على ما يرام؛ باعتبار أنهما كانا يعملان سائقين في شركة أرامكو ويكسبان راتباً شهرياً قدره عشرون جنيهاً إسترلينياً.

والجدير بالذكر هنا أن قبيلة قحطان هي من أهم القبائل في جنوب المملكة، وأن تاريخها يعود إلى عصور قديمة. وكما أشرت سابقاً وأكرر وأقول: إن الشخص العربي هو شخص واقعي، وأن معياره الوحيد للنجاح هو المال. كان عرب الصحراء في الماضي يتوجهون إلى البحر، ويبحرون في قوارب صغيرة

للبحث عن اللؤلؤ، وهي مغامرة قاسية محفوفة بالمخاطر. ولم يكن كسبهم في المواسم العادية ليزيد على عشرة جنيهات للرجل الواحد، لكن تردي تلك التجارة قلص ذلك المكسب، فلم يعد يتجاوز ستة جنيهات. لكن الآن أصبح العمل في آبار النفط لساعات طوال مقابل مرتبات جيدة يجتذبهم. وبالمناسبة أقول هنا: إن أفضل المرشدين لطرق ومجاهل الصحراء تحولوا للعمل في أرامكو. وأن عملهم المرتبط بأمور جيولوجية استكشافية كان يتطلب منهم ممارسة خبرتهم في شؤون الصحراء التي يمكن أن لا تحظى باهتمام لو كانت في مجال عمل آخر.

كان الروتين التقليدي لحياة البدو قبل استهلال هذا العهد الجديد يقضي بأن يمضي البدو الجزء الأكبر من العام في مراعي الصحراء، للاستفادة من الأمطار التي تهطل هنا وهناك، وبالتالي تبعث الحياة في الكلأ. أما خلال أشهر الصيف الجافة وبشكل خاص خلال شهر رمضان، فكان البدو الرحل يتجمعون في مجموعات صغيرة نسبياً حول آبار المياه أو حول بعض القرى. إن استقرار الأمن والسلام -في ظل رعاية ابن سعود- حرر البدو الرحل من المخاوف التي كانت تشكل عبئاً على حياتهم. إلا أن انتشار الغنى السريع لم يحقق سوى بعض المكاسب للصحراء التي كانت منتجاتها تباع بسعر أعلى بكثير من المستوى الذي كانت عليه في الأيام السابقة. وأصبحت متطلبات إنتاجها تكلف أكثر بكثير مما كانت عليه حالها في السابق، في حين لم تصل وسائل الترفيه الحضاري إلى المناطق المترامية من براري الجزيرة العربية. فعلى سبيل المثال لم يتوافر التعليم والدواء للبدو؛ لأن الأطباء والمدرسين المتحضرين لم يرغبوا في العمل في الأماكن النائية، بعيداً عن أفلام السينما والمتع الأخرى التي جلبها النظام الجديد. أبى هذا الجيل أن يذهب إلى محمد، بل اعتقد بأن على محمد أن يأتي إليه، ومن هناك استعد لينطلق في رحلة

طيران حقيقية، تحمله من أحياء الفقراء إلى المراكز الكبيرة التي تعج بالنشاطات الإدارية والتجارية والمدارس، وكذلك بالمستشفيات التي تقوم على رعاية أسرهم[1]. تمكن هؤلاء الناس وبسهولة من التأقلم مع المستجدات من الأمور التي بدت للوهلة الأولى تهدد الوسائل الوحيدة المتوافرة لكسبهم أسباب العيش وسبله: انخمدت صيحاتهم المعادية لوسائل نقل الركاب والبضائع، وأصبحت وسائل النقل الميكانيكية الحديثة مسيطرة على كافة طرق المسافات الطويلة، وأصبح يعهد بالجمل مهمة نقل الحمولة البسيطة إلى أماكن يتم فيها مبادلة منتجات الصحراء بالمتطلبات الأساسية لحياة البدو. كما لم يحقق البدو الرحل أية مكاسب من السيارات وسكة الحديد والطائرات، في حين تحولت وسائل النقل هذه لتصبح بمنزلة الشريان الدموي الاقتصادي للعديد من المدن والقرى.

كان سكان الصحراء على مدى أحقاب التاريخ العربي كافة يزحفون نحو المدن للبحث عن العمل والمرتبات الشهرية، أو كانوا عدواً مصمماً على السلب والنهب. ومهما تكن الحالة التي سيؤول إليها مستقبل الجزيرة العربية، فلا يمكن للصحراء إلا أن تستمر في أداء دور في تاريخها -حتى ولو كان ذلك على المدى الطويل- وذلك لتؤمن الغذاء لقاطنيها. انقضى عهد الجواد الخيّر الطبيعي الذي تفرزه مناطق نجد بعد أن كانت نجد تصدِّره إلى الخارج بأعداد كبيرة. والآن أصبحت الخيول -وإلى حدٍ ما- تستورد لأغراض الرياضة التي يمارسها الأمراء. وكما أشرنا سابقاً تم الحد من استخدام الجمال بشكل ملحوظ، لكن الحظر لا يزال

(١) لاشك أن المؤلف متأثر بوفاة الملك عبدالعزيز، مما جعله يبالغ في وصف الأوضاع وينتقد بعض الممارسات الفردية على أنها عامة. وما ذكره المؤلف هنا يتناقض مع التطورات التي شهدتها البلاد في العهود التي تلت عهد المغفور له الملك عبدالعزيز والتي شملت كافة أرجاء البلاد وفئات المجتمع.

مفروضاً على تصديرها لتذبح في مصر. ولعل أهم التطورات المدهشة أن أصبحت الأغنام تستورد على نطاق واسع وخاصة من الصومال ومن المناطق المجاورة لها.

ولم يكن ذلك الإجراء -من وجهة نظر المستهلك- مرضياً؛ لأن الأسواق أصبحت مكتظة بأنواع اللحوم القاسية التي حلت محل أفضل أنواع اللحوم في العالم التي سبق أن صُدرت إلى مصر عن طريق موانى البحر الأحمر. ومن بين مآسي النظام الجديد أيضاً كان موضوع تصدير البطيخ إلى الدول المشار إليها سابقاً. لكن ذلك لم يلحق بالبدو الذين كانوا يقومون بزراعة البطيخ في مواسم سقوط الأمطار على تهامة أي خسائر، إذ تضاعفت الأسعار المحلية للبطيخ بمعدل عشرة أمثالها، وعليه تم بيع مخزون البطيخ بشكل سريع. لكن الحقيقة الصارخة هي أن الإهانة والاحتقار لحقتا بالجيل المنحدر من أصول بدوية، وكانت تصدر من قبل أبناء بجدتهم في المدن والمناطق المجاورة، إذ كانوا يتباهون بشكل متطرف بتحضرهم المهجن، والمشتق بدرجة كبيرة من مصادر أجنبية. حدث ذلك في الوقت الذي كنا ندرك فيه أن العربي مدين بكبريائه وتقاليده إلى سلفه من القبائل البدوية. لكن البدو أنفسهم لا يلامون على هذا الوضع.

ففي الأيام الماضية كان الناس يكرهونهم ويخافون منهم، وكانوا ينظرون إليهم على أنهم أعداء، لديهم الاستعداد للقيام بأعمال السلب والنهب، أما اليوم فأصبح العاطلون عن العمل منهم يتوددون ويتزلفون للأغنياء، ويعملون مثل أوعية لنقل الماء أو كفؤوس من خشب. وعلى حد علمي أقول: إنه من أحلك جوانب حياة الجزيرة العربية الحديثة هو الغفران، أو التحلل من الإثم الذي سمحت به فضائل الصحراء. كما أن من الصعب على النفس إذعان رجال الصحراء لمصير سيضعهم في يوم من الأيام في خانة الهنود الحمر نفسها والشعب الماوردي -شعب نيوزلاندا

الأصلي- وشعوب أخرى سبق أن كانت عناصر متميزة في تاريخ الإنسانية، لكنها طُمِستْ بفعل التغلغل الأوربي وهي تناضل من أجل وجودها. إنه من العبث وربما من الخطأ أن نتأسى على زوال الحكم المشرف القديم، الذي عملت متطلبات التقدم القاسية على لفظه من الوجود. ولكن عندما يفتح اختفاء مبادئ الأخلاق والشرف المجال أمام بوابات سد الحرية لتتدفق الرذيلة ويعيش الفرد في بذخ، بل يصبح من واجبه أن يشجب سوء تفسير عالم الشرق للمعنى الضمني الحقيقي للتقدم الذي فهمه الغرب؛ وذلك لا يعني أن الغرب بحد ذاته محصن من أي نقد له علاقة بهذه الأمور.

وسأعقب على هذه النقطة في مواضع أخرى من كتابي، لكن قلقي الحالي يتعلق بوقع تأثير السقوط الحاد والمفاجئ للقيم والأخلاق الغربية على المجتمع العربي، تلك القيم التي تم تقليدها على نطاق واسع، لكنه لم يتم استيعابها بشكل فاعل بعد. إنه ليس من المفاجئ أن يبدي الإنسان العربي -الذي كان في الماضي فقيراً وجائعاً-، ردة فعل غريبة للثروة والوفرة اللتين أصبحتا تلوحان بسرهما لإغوائه. كما أنه ليس من المدهش أن نرى أن السيطرة الدينية والعادات الموغلة في القدم قد تحولت لتصبح مضجرة في ظل العهد الجديد من السلام والازدهار. كما أنه ليس من المدهش أن نرى أن قبضة هذه الأمور قد تراخت بموافقة عامة الناس حتى ولو أن تلك الموافقة كانت ضمنية. إن ما هو واقع لا محالة هو أن مكانة الأشخاص حديثي الثراء سترتفع اجتماعياً وعلى سلم من ذهب، وسيترافق ذلك الارتقاء مع تغاضي الأرستقراطية القديمة عنهم. ومما هو طبيعي جداً أن يتمخض عن مثل هذه الظروف شرور البذخ والتفاخر والمباهاة والفساد وكسب المال غير المشروع على كافة مستويات المجتمع. إن هذه الأمور في

حقيقة الأمر ليست غريبة على مجتمعات الغرب، لكن إذا كان العرب يظنون بأنهم يمثلون المعايير المقبولة في الثقافة والحضارة الغربية فهم جد مخطئون. فالعرب في هذه الحالة يسعون وراء سراب سيقودهم إلى حالة من الهمجية التي ستسود الجزيرة العربية في نهاية المطاف. إنه بذلك لا يعدو إلا وراء سراب سيقوده إلى صحراء مليئة بالأعمال البربرية التي ألفها خلال فترات عمله الطويلة عندما كان يعيش تحت وطأة الحكام الطغاة الذين كان همهم لفت أنظار الناس لبراعتهم أكثر من اهتمامهم بتوزيع العدل على رعاياهم.

شهد الماضي القريب فترة لم تكن قد دخلت فيها هذه الأمور إلى المملكة. لم يكن الملك المسن في تلك الفترة مجرد الحاكم وحسب، بل كان يحكم كل صغيرة وكبيرة، ويصدر تفاصيل الأمور الخاصة بإدارة البلاد.

تجسدت فكرة مشروع إقامة شبكة اتصالات لاسلكية قبل حوالي خمسة وعشرين عاماً. وغالباً ما كنا نسمع تلك القصة من الملك نفسه، إذ أطلعنا كيف أن شركة معينة كان كفيلها من أحد الشخصيات الكبار في الحكم تقدمت بعرض بلغت قيمته ٦٥ ألف جنيه إسترليني؛ وذلك لتقديم المعدات والقطع اللازمة للمشروع. وقال ابن سعود أيضاً: إن جون فيلبي تقدم بعرض نيابة عن شركة ماركوني للقيام بذلك المشروع بمبلغ ٣٦ ألف جنيه إسترليني. وبذلك وفر علينا الكثير من المال. في الحقيقة كان الفرق بين الرقمين يشكل مبلغاً مهماً من المال في تلك الأيام. لكن النقطة المهمة هنا هو أنه لم يخصص ولا حتى فلس واحد من قيمة الأسعار -الذي تقدمت بها شركة ماركوني- لحساب أي مسؤول في الحكومة، أو لأي شخص آخر مهما بلغ مركزه. وفي مناسبة أخرى تمت قبل بضع سنوات من تاريخ العرض الذي تقدمت به شركة ماركوني حدثت منافسة قوية

للحصول على عقد لتأمين الفحم اللازم لمحطات تحلية المياه في جدة. كان العرض الذي تقدمت به شركتي أكثر بستة بنسات للطن الواحد من العرض الذي تقدمت به الشركة المنافسة، إلا أن حاكم مدينة جدة اتصل بي هاتفياً وقال بأنه سيوقع العقد لصالحنا إذا وافقت على أن أخفض أسعارنا بمقدار تلك النسبة. وعلى الفور وافقت على ذلك العرض. وحققت شركتنا منه أرباحاً كبيرة، لكن لم يُدفع ولا فلس واحد لأي شخص من الأشخاص المعنيين في تنفيذ ذلك العقد. وبعد مرور بضع سنوات حصلت بالنيابة عن شركة فورد على امتياز حصري لتزويد حكومة المملكة بالسيارات والعربات. وقامت السلطات السعودية بفحص وتدقيق شروط ذلك الاتفاق وتم التصديق عليها بعد الكثير من المساومات. لكن لم يحدث في أي مرحلة من المراحل أن اقترح تخصيص أية عمولة مستقطعة. كما أنه لم يكن بالإمكان قبول مثل هذه العمولة حتى ولو تم طرحها. وأخيراً جاءت القضية الأكثر إثارة من غيرها وكانت موضوع منح امتياز خاص بالتنقيب عن النفط. كانت شركة الزيت الأمريكية من ولاية كاليفورنيا تتنافس مع شركة الزيوت العراقية ومع شركة من لندن على غرار شركة يقال لها "الشركة الشرقية العامة". والبند الوحيد من بين بنود شروط الحكومة السعودية والتي كان من المحتمل أن تسبب بعض الضيق لأي شركة داخلة في هذا المجال من التنافس كان بند يتعلق بدفع مئة ألف جنيه إسترليني ذهبي مقدماً وفور إتمام التوقيع على العقد. انسحبت "الشركة الشرقية العامة" من تلك المنافسة من بداية الأمر تقريباً بينما لم تكن الشركة العراقية للنفط جادة في الدخول بالنظر للمبلغ الذي طرحته الشركة الأمريكية والذي بلغ خمسون ألف جنيه إسترليني ذهباً. وبفعل هذا المبلغ حصلت الشركة الأمريكية على حق التنقيب عن النفط.

انسحبت تلك الشركة من مجال المنافسة وبالتحديد منذ بدايتها، في حين لم تكن شركة النفط العراقية جادة في الالتزام بالعرض الذي تقدمت به شركة كاليفورنيا الذي بلغت قيمته خمسون ألف جنية ذهبي والذي تم إقرار الامتياز الخاص به بعد دراسة دقيقة من قبل أعضاء مجلس الملك. ومرة ثانية لم يطرح موضوع أية عمولة أو دفعات مالية سواء أكانت فعلية أو حتى محتملة لأي عضو من أعضاء الحكومة.

obeikandl.com